النهر سلطان

قصة

بقلم الدكتور عبد السلام العجيلي

عاش مبروك عمره الطويل ، واحدا وثمانين عاما ، في قريته على شاطىء نهر الفرات لم يغادرها الا الى البلدة القريبة اياما قليلة يعود بعدها الى قريته ، ومات في هذه القرية نفسها منذ بضعة اسابيع . وكان جديرا بمبروك ان تكون ايام حياته الاخيرة ايام نكد مرة اذ كان يعيش فيها وحيدا ضعيفا عاجزا بعد ان فارقت زوجته الحياة منذ سنين طويلة وعديدة . ولم يكن له ولد يتولى رعاية شيخوخته .... لا ، بل كان له ابن وحيد ففقده في ريعان صباه وظل قلبه منفطرا بالحزن عليه الى اخر يوم من حياته . وكانت له بنات خمس كن متزوجات في قرى متباعدة وقد شغلن بأزواجهن وبابنائهن وابناء ابنائهن عن الالتفات الى ابيهن الوحيد العجوز . ولكن مبروك ، مع كل هذا وبالرغم من اساه المزمن على فقد ابنه الوحيد ، فارق الحياة قرير العين مثلج النفس بعد ان قضى شهوره الثلاثة الاخيرة منها في هناءة غامرة تشبه السعادة المطلقة . من اين جاءت مبروك هذه الهناءة في ايام شيخوخته الاخيرة ؟ انها لاشك رحمة الله التي ابت ان يفارق هذا العجوز المسن الدنيا محترق القلب بلوعة الثكل وبحسرة النفس وبالاحساس المض بالعجز والهوان ، فساقت الى قرية مبروك فرقة الهندسة التي كلفت بدراسة مشروع اقامة سد على نهر الفرات وساقت مبروك الى خيام تلك الفرقة . هناك تعرف هذا الفلاح العجوز الى بعض المهندسين فانسوا اليه واولوه ، تحببا منهم اليه وعطفا عليه ، اولوه عملا يسيرا في ذاته ولكنه بالنسبة الى مبروك كان نقطة تحول مباركة في حياته ، في القليل الذي بقي من حياته، وفي البسيط البدائي من افكاره وفي الطبيعي البعيد عن الغرابة من احاسيسه .

قضى مبروك الاشهر الثلاثة الاخيرة من حياته حارسا في قرية فرقة الهندسة التي كانت تتالف من منزلين خشبيين من المنازل المهياة لسكنى المهندسين ومكاتبهم ومن بضع خيام كان يأوى اليها العمال وتملؤها الادوات الفنية والميكانيكية . وكانت مهمة الحراسة في هذه القرية المستحدثة القائمة على السفح الذي يعلو قرية مبروك مهمة شكلية اذ لم يكن ثمة من يجرؤعلى ادوات المهندسين ومعداتهم في المنطقة كما ان الخيام والمساكن لم تكن لتفرغ ابدا ممن فيها فتطمع لصا بسرقتها . ولذا فقد كان عمل مبروك عملا هينا لايفوق طاقة سنيه الثمانين التي كانت حملا ثقيلا على كتفيه وان ظل بالرغم من ثقلها معتدل القامة جهير الصوت . فكان يبيت لياليه في خيمة تقع على تلعة يرى منها ، حين يكون القمر بدرا او قريبا من البدر ، كل الفضاء المحيط بالمسكنين وبالخيام الاخرى كما يرى منها ، اذا مد بصره ، كل السهل المنبسط جنوبا نحو الافق والوادي العريض الذي يسيل فيه نهر الفرات متعرجا كشريط فضي في سواد الارض حوله في الشمال . اما في النهار فان مبروك اذا لم ينزل الى قريته ليسمع احاديث الناس فيها عن الزرع والمطر واسعار العلف في هذه السنة المجدبة ، اذا لم ينزل الى قريته وقد اصبح يقلل من نزوله يوما بعد يوم ، فانه يرافق المهندسين في تجوالهم بسيارات الجيب في انحاء الوادي ويتوقف معهم حيث يتوقفون بين ان واخر في امكنة مختلفة من سفح المرتفع الذي يحد في الجنوب فراش نهر الفرات وهم يدرسون تركيب هذا السفح ونوع تربته وصلابة صخوره . واحيانا كان يركب مع فاسيلي ، وهو المهندس الاجنبي ، احد الزورقين السريعين ويظل في النهر ساعات يتأمل في انديات الماء حول الزورق في موجات تتوالى متدافعه حتى تلطم جرفي النهر في شاطئيه بينما يكون فاسيلي ومساعده منهمكين في قياس سرعة التيار في مختلف النقاط من النهر او في القاء المسابر في اعماق النهر المختلفة لمعرفة ابعادها وحرارة الماء او تركيبه فيها . كان ما يقوم به المهندسون من اعمال شاقة او دقيقة والجهود التي تبذل في قريتهم العجيبة والاموال التي تصرف في عمليات قليلة الجدوى في ظاهرها ، كان كل ذلك الغازا في نظر مبروك في الايام الاولى من التحاقه بعمله . ولكن احاديثه مع العمال واحتكاكه بالفنيين ومرافقته للمهندسين جلت نظره وادخلت في فهمه المعاني البعيدة لهذه الاعمال العقيمة : لقد فهم ان كل هذا مقدمة لعمل عظيم وخطير ، وانه سوف يأتي يوم ليس ببعيد تهدم فيه قريته وعشرات القرى المنتشرة قربها على شاطىء الفرات وتعطل حقولها ويهجر ابناؤها ليرتفع مكانها سد عظيم من اسمنت وحديد وحجارة عظيمة كل منها في حجم الخيمة التي ينام مبروك ، وان هذا السد حين يرتفع سيحجر وراءه ماء الفرات ويمنع طغيانه ويجعله عبدا مسيرا لامر هؤلاء المهندسين الاذكياء الذين يرافقهم مبروك كل يوم في جولاتهم في السفح والوادي في سياراتهم الشيطانية الخفيفة وعلى سطح الفرات في زوارقهم المتكتكة السريعة الانطلاق ..

اذن فهناك سد سيقام في هذا المضيق الذي يسير فيه الفرات في واد بين مرتفعين في الشمال والجنوب ... وشيئا وراء شيء كان المشروع الذي قامت لاجله قرية المهندسين فوق السفح يتضح امام عيني مبروك وباتضاحه كان الرضى ينساب الى نفسه شيئا وراء شيء كذلك . ربما كان المهندسون اناسا قصيري النظر لايدركون الا مايبصرونه باعينهم او تؤديه لهم الاتهم الحاسبة المعقدة فهم يثبتون معلوماتهم واحدة واحدة على اوراقهم ويرسمون هذه المعلومات على تلك الاوراق بخطوط متعددة الالوان عجيبة الاشكال ليس فيها مايشبه صورة سد او جزء من اجزاء سد على نهر الفرات ، اما مبروك فقد كان ابعد نظرة واوسع تصورا واشمل

مدى في التأمل من كل هؤلاء المهندسين ومعاونيهم ... لقد كان يرى بعينيه منذ الان صورة السد الذي سيقوم على الفرات بعد عام او عامين او اعوام مهما طالت فلن تبلغ العشرة : بناء عجيب ارسخ من سور الرصافة في البادية الذي مرت عليه الاف السنين ولم تنقض منه حجرة واضخم من تلعات المناخر التي تطالعه من الشرق في كل صباح بالرغم مما تفصله عنها من مئات المراحل ، واعلى من مئذنة جامع الرقة العتيق التي تبدو اول كل شيء لعينيه اذا ماقصد البلدة في صبيحة موسم او نهار عيد ... .لهذا البناء العجيب طاقات نمر فيها من كبرها الجمال المحملة ، يتحكم فيها مهندس مثل فاسيلي او صبيح او ربما صبي لاحد المهندسين مثل عبد الستار ، فيستطيع بضغطة على زر او بادارة لولب ان يترك الفرات ينصب منها معجلا او انه يحجز مياهه فتتلاطم وراء السد حرونة مغضبة ! كلما تصور مبروك هذه الصورة اثلج صدره وشعر في اعماق نفسه بغبطة من اشتفى من عدو له لدود ورضى من بلغ ثارا من خصمه العنيد ، وحدثته نفسه بان يندفع الى اقرب مهندس اومساعد مهندس او عامل من عمال مشروع السد ليضمه اليه ويقبله ، حامدا الله على ان مد في عمره حتى رأى هؤلاء الرجال الطيبين يجتهدون ليبنوا على الفرات هذا السد. يقولون ان وراء هذا البناء الجبار خيرا كثيرا ، ولكن خير الخير في نظر مبروك الشيخ كان ان يجد الفرات من يلجمه ويكبح طغيانه ، فهو لن يتحكم بالناس وبالارض بعد مثلما كان يفعل ، لن ينزع مزرعة من زيد ليهبها الى عمرو دون مقابل ، لن يهد الاجراف ويتلف الزرع ويغرق الصبيان في زهوة صباهم ... قد يكون الفرات سلطانا جبارا طاغيا ، ولكن مبروك عاش حتى رأى سطوة هذا السلطان الطاغي تتحطم ويقف فيه ، مقهورا ، عند حده ...

* * *

الفرات سلطان !... في الثمانين عاما التي غبرت من عمره سمع مبروك هذه الكلمة مرات لاتعد ولا تحصى ولفظها هو بلسانه مرات لاتعد ولا تحصى كذلك . والناس على ضفتي الفرات في واديه الممتد من منبعه الى مصبه يقولون كلهم هذا القول ويعتقدون به ، ربما منذ الاف السنين منذ كان للناس عيش على ضفتي هذا النهر الطويل العريض . الفرات سلطان حين يسيل في واديه موزعا خيراته على اليمين واليسار على الامم المختلفة التي تشرب من مائه وتتغذى بما يرنوي به من زرعه . والفرات سلطان حين تنحدر امواجه الهادرة في الربيع من قمم منابعة المكللة بالثلوج فتكتسح في نوبات فيضانه الجنوبية ما بناه الانسان بكده في المنخفضات من مساكن واوابد وما غرسه من شجر مثمر او زرع مستحصد . والفرات سلطان حين يبدل مجراه في الوادي العريض الذي يكون فراشه فينتحول الى اليمين او الى اليسار عشرات الاذرع او مئاتها مغيرا في المعالم والتخوم مداخلا بين الملكيات فاتحا بين الناس ابواب نزاع لاتنتهي . كان مبروك يعلم ان كلمة الفرات سلطان هي بند من بنود شريعة الوادي بين القبائل التي تسكن ضفاف النهر فاذا تحول النهر الى الجنوب حتى اني على كل ارض مبروك في الضفة الشامية او تجاوزها فأصبحت هذه الارض في ضفة الجزيرة من النهر ، فان مبروك يكون قد فقد ارضه بدون عوض . وهو لايستطيع ان ينتقل الى ضفة الجزيرة وراء ارضه التي يعرفها بالمعالم التي تركها بنفسه فيها ، ذلك لان شريعة القبائل ضده في هذا ، فأرضه قد لحقت بارض فلان من الناس فأصبحت ملكا لفلان ، اليست حدود ارض هي النهر في الجنوب .؟ فلو قال مبروك ان هذه ارضي اعرفها ببقايا كوخي الذي بنيته فيها بيدي وبآثار البكرة التي اقمت منصبها بمجرفتي ومعولي ، لو قال مبروك هذا لاجابه عارفة القبيلة ، وهو قاضيها الذي لايرد قضاؤه بكلمة واحدة ، الفرات هو الذي اعطى ارضك لفلان ، والفرات يامبروك سلطان !

منذ ثمانين عاما ومبروك يرى الفرات يأخذ ويعطي ، يعمر ويدمر ، يفيض حتى تستند ضفتاه على المرتفعين اللذين ينتهي اليهما الوادي العريض ويفيض حتى يصبح اخدود ماء لا يتعدى المائتي ذراع في عرضه. كان في عيني مبروك سلطانا كأقوى مايكون السلاطين جبروتا واطول مايكونون عمرا . ذلك ان مبروك كان قد سمع بسلاطين كثيرة ذوي شأن وطغيان اتت الايام على شأنهم وطغيانهم بالموت او بتغلب عدو او بانتفاض بطانة او صديق ، فكان يتساءل بينه وبين نفسه لماذا يكون الفرات وحده سلطانا ابديا مطلقا لانهاية لامره ولا مرد لحكمه ؟ هذا التساؤل كان امرا غريبا من مبروك في بساطة تفكيره وبدائية حياته وهو تساؤل لاشك في ان قليلا ممن يعيشون حول مبروك وفي ايامه قد اداروه بينهم وبين انفسهم . ذلك ان هؤلاء الناس الذين يحيون حياة مبروك ولهم مثل عقليته قد عرفوا من سلطان الفرات هدير موجه وحدة تياره وتهديمه الاجراف على ضفتيه بما عليها من بنيان البكرات والفراريف والمضخات ، ولكن احدا منهم لم يذق من جور الفرات ماذاقه مبروك في ليلة مظلمة مضت منذ ثلاثين عاما او مايقارب ثلاثين عاما . مضت تلك الليلة في حينها ، ولكن ذكراها واثرها ظلا في نفس مبروك لايمحوها مر الايام ولا كر الاعوام ...

الفرات سلطان ، وسلطان غاشم جبار ... يعرف مبروك ذلك كل المعرفة . فمنذ ثلاثين عاما او ما يقاربها ، في منتصف ليلة من ليالي نيسان بعد ان غاب القمر فلم يعد في الليل نور مضيء غير انوار النجوم ، عاد مبروك من كرده ، وهو قطعة الارض التي تخصه من ارض العشيرة ، بعد ان حل وثاق الثور الذي كان يجر الدلو على البكرة في آلة السقي البدائية التي كان يروي بها ارضه . عاد من كرده، اعني حقله ، وكان يتبعه ابنه رمضان . ورمضان كان وحيد مبروك ، صبيا يافعا اصغر من اخواته البنات الخمس ولكنه كان يبدو في حسن بناء جسده واكتمال نمو اعضائه وبالعون الكبير الذي يؤديه لابيه في عمله ، كان يبدو رجلا مكتمل الرجولة . وكان الاب والابن قد قضيا يوما منهكا من العمل في الكرد ، احدهما يسعى وراء الثور ، في انحداره في الاخدود العميق جارا دلو البكرة الجلدي المثقل بالماء ليصبه في الساقية ، او في صعوده في هذا الاخدود الى قمته خفيف الحمل مرخيا الحبل للدلو حتى يسقط في الفرات ليمتلىء بالماء من جديد ، والاخر منصرف الى تلقي الماء الذي تأتي به الساقية ليديره على الواح الحنطة، التي سقطت عيدانها وكادت سنابلها ، والوقت آخر نيسان ، تعقد . كان الاب والابن متعبين من يوم العمل الطويل الذي امتد الى منتصف الليل بنور القمر الذي يتيح لهما رؤية الدلو والبكرة والساقية وماءها، ولكن تعبهما لم يخل من نشوة الغبطة برضاهما عن زرعهما ثمرة كدهما. فكان الاب يسير في المقدمة في الشريط الضيق من الارض الذي يفصل جرف النهر عن زرع مبروك وزروع جيرانه وجيران جيرانه من اهل القرية ، خابطا في الظلمة بين آثار سواقي الكرود ومعالمها وهو يحدث ابنه المتخلف عنه بصوت مرتفع عن الموسم وجودة الزرع وارتفاع السنابل وعن النهر ، نهر الفرات الذي يعيشون كلهم في ظل سلطانه والذي هو اليوم في اوج فيضانه . كان النهر قريبا من الدرب الذي يسلكه مبروك وابنه لا يبعد عن مسير اقدامهما الا خطوة او خطوتين ، وكان مبروك

يسمع لامواجه الهادرة دوي مكتوم مشوب في بعض الاحيان بلغط خفيف دليل تكسر احدى الموجات على قاعدة الجرف الذي يمشيان فوقه . واذا التفت مبروك بنظره قريبا الى يمينه او مده بعيدا امامه كان يرى مياه الفرات كامدة في الظلام الذي تعودت عيناه على التمييز بين الالوان الغامقة فيه او يرى بطن النهر في مجراه تلتمع ذرى بعض موجاته بالق النجوم فوقه . وقال مبروك لابنه بصوت مرتفع ، لانه كان يحدس ان ابنه ظل بعيدا وراءه ، قال له ان من حسن حظهما ان النهر هذا العام قد مال بثقله في الفيضان على ضفة الجزيرة ، وهي الضفة الشمالية ، ووفر الضفة الجنوبية التي تقع فيها ارض مبروك وارض سكان قريته . فكل البكرات المبنية على الضفة الشمالية قد هوجمت بموج النهر المتلاطم الذي هدم داراتها وخرب سواقيها وتعداها الى زروعها فاتلفها اذ اصبح نصف الزروع في مجرى الماء وما سلم منها سيموت عطشا لانه لم يبق على تلك الضفة جرف ثابت تبنى عليه دارة جديدة لبكرة او غراف . وبينما كان مبروك يحدث ابنه بهذا كان يسمع من الضفة المقابلة بين حين واخر صوت انهيار اصم مصدقا لاقوال الفلاح الكهل اذ كان كل من مبروك وابنه يعلم انه صوت انهيار جرف هدته هجمات امواج النهر الهائج . كان مبروك يتحدث ويتحدث وهو في طريقه الى منزله سابقا ابنه ، دون ان يسمع من رمضان جوابا او تعليقا على حديثه ودون ان ينتظر منه هذا الجواب او ذاك التعليق . ولكنه قبل ان يشارف منازل قريته وينحرف في طريقه دائرا حول الحقول الى حيث تقوم المنازل التفت وراءه متفقدا موقع ابنه فلم يتبينه قريبا منه. فوقف ومد بصره في العتمة الى الدرب الذي جاءا منه على حافة الجرف الذي كان النهر يتلاطم عند قاعدته فلم يلح له ، في مدى بصره في الظلام شبح رمضان . فصاح يناديه في الليل الساكن : رمضان ... رمضان ! ولكن رمضان لم يجب على ندائه ... فعاود النداء بصوت اعلى ونبرات ممطوطة وارهف سمعه مترقبا الجواب ، الا ان نداءه ظل صيحة ضائعة في سكون موحش ما كان فيه من نأمة الا صرير حشرات الليل الدقيقة . حينئذ احس الفلاح الكهل المتعب بنقمة على ابنه اذ تأخر عنه وتركه في كل هذا الطريق يتحدث كالمجنون الى نفسه ممزوجة بالاستغراب لتخلفه عنه كل هذا التخلف ، ممزوجة بالقلق مما دعاه الى ان ينقطع عنه كل هذه المسافة دون ان يؤذنه او يستأذنه بذلك. ولما وجد مبروك ان صيحاته المتوالية لم تجد ردا وان انتظاره في مكانه لم يفد شيئا استدار عائدا من الطريق التي اقبل منها محددا بصره في الظلام باحثا فيه عن شبح ابنه مناديا بين الحين والحين باسمه في الليل العريض المظلم الساكن .

كان مبروك يعرف الطريق التي جاء منها معرفة تامة لطول ما سلكها في النهار وفي الليل ، في ضياء الشمس وفي نور القمر وفي الظلمة المطبقة التي لا ضياء فيها ولا نور ، يعرفها طريقا ضيقة محددة بين حوافي زورع كرود القرية من جانب وبين الجرف الثابت الذي كان الفرات يتباعد عنه في الصيف والخريف ويتقرب منه في الشتاء حتى يتخذه له ضفة في ذروة موسم الفيضان الربيعي من جانب اخر . هذه الطريق كانت تتسع احيانا حتى تبلغ اربعة اذرع او خمسة في عرضها وتضيق احيانا حتى تلتصق حافتها بحافة الجرف فلا تكاد تكفي لمرور حمار محمل بلاس تبن عريض . كان مبروك يعرف منها مواضع السعة والضيق والمواضع التي تقطع الدرب فيها سواقي البكرات والغراريف المقامة على ضفة النهر ، ويستطيع ان يسير فيها مغمض العينين دون ان يتعثر بكومة من التراب او ينحرف عنها جنوبا فيدخل الزرع او ينحرف شمالا فتزل قدمه في الجرف . فلما عاد ادراجه اخذ يتفقد ، بقدر ما كان يعينه بصره الحديد في العتمة المطبقة ، معالم تلك الطريق باحثا عن المكان الذي سمع فيه لاخر مرة صوت رمضان ابنه وراءه . وسار في طريق العودة طويلا ملقيا بين الفينة والفينة باسم ابنه صرخة دعاء لم تكن تحظى بجواب ، فما كان يسمع في السكون غير هدير امواج الفيضان الذي اخذت طبقته في العلو في سمع مبروك ربما لان اذنه اصبحت اكثر حدة بارهافه لها مترقبا صوت ابنه او ربما لان روافد جديدة من مياه الفيضان كانت قد بلغت هذا الموضع من مجرى النهر في هذه الساعة من الليل . والى جانب هدير الامواج المتلاطمة كان مبروك يحس بكل كيانه بتيار النهر مندفعا في سرعته المخيفة قريبا منه ويشعر بارتطام المياه الهائجة بقاعدة الجرف البيلوني الذي كان يسير هو ، مبروك ، على بعد ذراع او اقل احيانا من حافته . وفجأة وقف مبروك مشدوها ، وكادت صيحة داوية ان تنطلق من حنجرته ، ولكنه احس كأن يدا حديدية المخالب قبضت على عنقه فحبست الصيحة مكانها بينما هبط قلبه من موضعه في صدره وارتفع كل دم جسده الى رأسه . كل ذلك احس به مبروك حين بلغ في سيره مكانا تطلع فيه الى قيد باع منه فرأى ان الدرب امامه بين حافة الزروع والجرف قد امحى وان فجوة واسعة قد وصلت بين النهر والارض المزروعة . في مكان هذه الفجوة كان الجرف قد انهار فاندفع ماء النهر الطاغي فيها في ثلمة كان اصلها العريض متصلا بمسرى النهر وذروتها الدقيقة في الحقل المزروع حيث ارتفعت فوقها اعواد القمح النامي كثيفة متمايلة ...

مجموعة اعلام الموسيقى

تعرض حياة عباقرة الموسيقى واثر المرأة في حياتهم

صدر منها			ق.ل
١	بتهوفن	ترجمة : الدكتور علي شلق	١٥٠
٢	شوبان	« خليل الهنداوي	١٧٥
٣	تشايكوفسكي	« الدكتور فؤاد ايوب	١٥٠
٤	كورساكوف	« الدكتور فؤاد ايوب	١٥٠
٥	ليست	« بهيج شعبان	١٥٠
٦	موزارت	« بهيج شعبان	١٥٠
٧	باغانيني	« بهيج شعبان	١٥٠
٨	فاغنر	« الدكتور فؤاد ايوب	٢٠٠
٩	شوبرت	« بهيج شعبان	٢٠٠
١٠	الفن الغنائي عند العرب	تأليف : نسيب الاختيار	١٥٠

الناشر : دار بيروت للطباعة والنشر

جلس مبروك على الارض وقد دار رأسه بدوار عنيف واصبح جذعه في ثقل الرصاص فوق ساقيه حتى اصطكت من ثقله ركبتاه . ومد عنقه يتأمل ببلاهة في الماء الذي تسرب من الفجوة الواسعة الى حقل الحنطة ، فرآه بالرغم من الظلمة الداكنة يدور في دوامات بطيئة كانت تضرب في اصل الجرف الجديد الذي امتد تحت الحقل المزروع فتهد منه قليلا ثم تعود فتختلط بمياه النهر التي كانت تكسرها عند الضفة غلالة من الزبد الاسمر القذر . وتطلع مبروك حوله في اسى كأنما كان يستجدي ابنه من النهر والنجوم والسنابل ونادى بحرقة : رمضان ... رمضان ! غير ان نداءه هذا ظل في اثناء الليل وحيدا عقيما . حينئذ نكس الاب المسكين رأسه وهمس في دوامة الماء التي كانت في تلك اللحظة تدور تحته في الفجوة :

ـ رمضان ، يا ولدي !

ثم وضع رأسه بين كفيه وراح يبكي .

وفي الصباح وجده الفلاحون المبكرون الى سقاية زروعهم جالسا على الضفة حيث تهدم الجرف من هذا الجانب من جانبي النهر لاول مرة في هذا العام ، يتطلع بنظر ثابت الى الفجوة التي انهارت تحت قدمي ابنه الوحيد حيث ابتلعه الموج ، موج الفرات الطاغية ، في ظلمة الليل مخلفا اباه المسكين وحيدا مفردا حزينا ..

* * *

كل ذلك كان منذ ثلاثين عاما او مايقاربها . لقد اختطف النهر السلطان ابن مبروك ، اختطفه واخذه دون ما ذنب ، لم يعتذر ولم يدفع عنه دية ولا عوضا ، اليس الفرات بسلطان ؟ ولكن مبروك كان قد سمع بسلاطين كثيرة وضع الدهر حدا لطغيانهم وجورهم بالموت او بالخلع او بالثورات والحروب ، فلمَ يبقى هذا السلطان الجائر وحده ولا كابح لظلمه واستبداده ؟... كان مبروك يدير بمرارة هذا السؤال بينه وبين نفسه ، سؤالا في اعماق وجدانه غامضا حائرا لايكاد يتخذ له صيغة لفظية لو اراد ان يطرحه على انسان ممن حوله . ولو طرحه على احد ممن حوله لضحك من حوله وحسبوه مجنونا ، لذا فقد طوى جوانحه عليه مثلما طواها على اساه وحزنه على ابنه الوحيد . كلما جاش الفرات في فيضانه في الربيع احس مبروك بالمرارة تملأ نفسه وبهوان من يرى قاتل ابنه يخطر امامه متحديا فلا يستطيع ، عجزا وذلا ، ان يمد الى هذا القاتل المجرم يدا . ويردد الناس في احاديثهم اليومية ان الفرات سلطان فتأكل الثورة كبد الوالد المفجوع دون ان يستطيع تعقيبا او كلاما.

كان مبروك يترقب الموت ليتخلص به من وحدته وشيخوخته وعجزه ومن هذا الكمد الذي اضناه وانحله ، ولكن عمره طال ، طال اكثر مما يشتهي طال الى ان جاءت ذات يوم السيارات المثقلة تضع احمالها على التلعة التي تعلو قريته ورأى بعينه خياما تنصب ومساكن تقام ورجالا يلبسون سراويل الخاكي وقمصانا مشمرة الاكمام يقولون انهم جاءوا ليبنوا في هذا المكان بين المرتفعين اللذين يحجزان فراش الفرات ، سدا جبارا على نهر الفرات ... حينئذ اغتبط مبروك بأن حياته قد طالت الى اكثر مما كان يشتهي واسلم نفسه الى رقدة الموت ، حين جاءت ، راضيا هانئا .

مات مبروك بعد نحو من ثلاثة شهور من بدء الاعمال في مشروع السد الجبار ، وفي الواحدة والثمانين من عمره . وحين اغمض عينيه كان الزورق السريع يشق صدر الفرات جارا وراءه المسابر المعلقة في اسلاك غائصة في النهر تسجل اعماقه وابعاد قاعه وسرعة التيارات وعنف الدوامات فيه . وكانت الالات الحافرة تخرق الارض في مكان ما من السفح الذي يعلو قرية مبروك في ثقب عميق يسكب المهندسون فيه الماء ليسجلوا مقدار امتصاص التربة للمياه في مختلف طبقاتها . وكان المعاونون ، حين اغمض مبروك عينيه في غفوة الموت ، يملأون صناديق مستطيلة من تربة انحاء متفرقة من ضفتي النهر ويختمون هذه الصناديق قبل ارسالها الى مخابر التحليل . وبالرغم من اغماض مبروك عينيه الاغماضة الاخيرة فان هذه الاعمال والمشاهد كانت تتراءى له كصور حلم سعيد ويدرك منها ان السد العتيد ، وان لم يكن قد قام بعد ، سيقوم حتما في هذا المكان . كانواثقا من هذا حتى لكأنه كان يراه في هذه اللحظة : سورا طويلا عريضا ترتطم وراءه امواج الفرات تريد منه الانفلات فلا تقدر على الانفلات ، بل تتكسر متحطمة على صخور السد التي كل واحدة منها في علو مئذنة البلدة وفي ضخامة المنازل التي يسكنها المهندسون . لم يعد الفرات سلطانا مطلقا بل اصبح خادما مطيعا عبدا للانسان الذي يقيمه او يقعده ، يحبسه او يطلقه بضغطة زر من اصبع واحد من هؤلاء الفتيان الصباح الوجوه ذوي السراويل الخاكي والاكمام المشمرة . على ذلك اغمض مبروك عينيه مبتسما وخرج من هذه الدنيا مغتبطا راضيا سعيدا ...

الرقة — عبد السلام العجيلي

دار الآداب تقدم :

قصائد عربية

للشاعر العربي

سليمان العيسى

الثمن ٣ ليرات لبنانية

صدر حديثا